

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

بدأت هذا الكتاب على أن يكون صوراً من البطولة العربية فحسب ، ولكنى رأيت أثناء الكتابة أنني لا بد أن أتناول صوراً من البطولة غير العربية ، لأننا لا نستطيع أن نفصل العرب عن بقية العالم ، فبدأت في تناول شخصيات غير عربية ، ولكن أثرها على العرب عظيم ، فنحن لا نستطيع أن نهمل ترفانتييس مؤلف كتاب الدون كيخوتى الذى يعتبر من أعظم الكتب العالمية وكذلك كتاب غراميات، وعلى ذلك أصبحت الشخصيات عربية وغير عربية وأصبح الكتاب جميلاً متكاملًا وهاهو ذا بين يديك تستطيع أن تستمتع به ، وأحسست أن الناس أحبت الكتاب إذ أن طبعته نفذت فطبعته للمرة الثانية في نفس العام. وها أنت ذا ترى طبعته الثالثة وأرجو أن تعجبك أيضاً .

ومثل هذا الكتاب عسير جداً لأن كل فصل منه لا بد أن يكون وكأنه كتاب مستقل وأنت لا بد أن تقرأ الكتاب قراءة تامة لكى تكتب ملخصاً محترماً .. لهذا فإن ذلك الكتاب يعتبر من أعظم كتبى وأهمها وأرجو ألا تظن من هذا الكلام أنني مغرور بكتبى ولكن الحقيقة أنني أعرفك بقدر الكتاب ، لأن الكتب عندي ليست مجرد كتب بل هى دراسات . هذه مقدمة صغيرة أرجو أن تعجبك لأننى أهتم جداً بكتبى وأبذل فى كتابتها جهوداً ضخمة ، والله سبحانه وتعالى معين على ذلك .

والسلام،،،

د . حسين مؤنس

١٩٩٢ / ٤ / ٢٨

فكرة الكتاب

هذه الصفحات أعرض فيها صوراً من حياة طائفة من الناس وفقهم الله إلى تيمم الهدف الأسمى للإنسان من حياته ، وهو إسعاد الناس . وليس لي من وراء هذا العرض إلا غاية واحدة ، هي أن يعلم الناس أن امتياز إنسان على إنسان غيره من الناس في خصلة من الخصال ، أو اقتداره على القيام بأعمال كبار تشتغل بها أذهان معاصريه ، أو تصديه لأنداده وخصومه ومغالبتهم طلباً للنصر والظفر .. كل أولئك أمور لا تهيم للإنسان مكاناً بين العظماء أو الأبطال أو الخالدين ، لأن العظمة الحققة هي خدمة الخير ، والبطولة الحققة هي تضحية الإنسان نفسه في سبيل الناس ، والخلود الحق إنما يكون في قلوب البشر .

وكأين من رجل وُهب من الذكاء ما يكاد أن يستشف به حجب الغيب، ومن الاقتدار ما يهز به الأرض هزاً ، فلا يزال يغالب الناس ويستذلهم ، ويتعاطم عليهم ويروع أمنهم حتى يمضى عنهم وكأنه كان إحصاراً خبيثاً اقتلع شجراً ههنا وهدم داراً ههنا ، وأثار موجاً هنا وأغرق سفينة هناك ، ثم مضى مخلفاً وراءه الخراب والآلام في حيث كان !

وكأين من رجل بسيط لم يكن أحد من أهل عصره ليحفل له ، أنفق أيامه في دأب متصل عادت جدواه من بعده على الناس أجمعين ؛ كهذا الطبيعي المصري الحسن بن الهيثم قضى حياته مجرب في الهندسة والبصريات ويشقى بعنت معاصريه وأنداده ، حتى لقد قضى معظم أيامه مشرداً أو سجيناً ، ثم مضى وقد خلف وراءه للإنسانية من الخير مالم يخلفه المئات من عظماء عصره وأصحاب الجاه في أوامه .

وكهذا المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي : قضى حياته يسجل أحداث عصره ويلقى في سبيل ذلك من الوصب ما يعرفه كل من ألم بطرف من حياته ، ثم مضى وقد خلف لنا من التراث مالم يوفق إليه أنداده ممن أنفقوا أعمارهم في طلب الجاه والسلطان .

وكهذا الكيميائي الفرنسي لوى باستير : قضى العمر مجرباً باحثاً يتعقب الميكروب في صبر وجلد ييزان النفس هزاً ، ولقى من عداء معاصريه وتخذيدهم إياه ما كان حرياً أن يعدل به عن هذا المطلب الأسمى ، ولكنه مضى يعمل في سبيل خير الناس حتى فتح لهم الله على يديه من آفاق الخير والسعادة ما ينعم به اليوم كل إنسان .

وكهذه الأجيال من طلبة العلم وهواة الفنون والصناع والزراع وأهل الحرف التي يسرت للناس - بجدها الدؤوب المتصل - العيش على هذه الأرض ، لا يقلل من عظمتها بساطة أعمالها واندراج أفرادها في ألفاف النسيان ، لأن آثار أعمالها إنما هي تراث مطلق للبشر أجمعين . ونحن لا يعيننا في تقدير الناس أن يكونوا من ذوى العبقريات النادرة ، وإنما بحسبنا أن يكون الواحد منهم قد ساهم مخلصاً في تحسين ظروف الناس على وجه الأرض بأبسط نصيب لكى نضعه بين بناء التاريخ .

والحضارة لم تبنيها العبقريات بقدر ما بنتها المساهمات المتواضعة التي قدمها أناس مجهولون ، مازال كل منهم يضيف جهده إلى جهود الآخرين حتى ارتفع صرح الحضارة البشرية على أكتافهم شامخاً ، ومثلهم في ذلك مثل الجنود في جيش : يساهم كل منهم في المعركة بشيء يسير جداً ، وتجتمع هذه الأشياء اليسيرة ليكون منها النصر العظيم .

وليس يحتاج الإنسان إلى أن يكون موهوباً خارق الذكاء ولا نادر المواهب لكى يكون عظيماً ، وإنما يكفي أن يكون إنساناً ذا قلب حى يشعر بأن الحياة لا تكون حياة إلا إذا أنفقت في جهد متصل في سبيل الخير ، وأن الإنسان الجدير بلقمة العيش التي يتبلى بها هو الذى يؤدي حقها بالعمل الدؤوب على قدر ما تساعف الظروف ، لأننا على هذه الأرض لنعمرها ونجملها ، لا لطلاب الراحة والنعيم ، ولأن الله خلقنا لنشكر آلاءه علينا بالعمل فيما فيه خير الأرض وخير أهلها . والعمل عبادة ، وطلابُ الخير سيادة . ولن نجد إنساناً ذليلاً ساعياً في خير أبداً ، ولن نجد إنساناً ذا همة وجِدٍ وقصِدٍ للخير إلا عزيزاً أبداً متفضلاً أبداً ، ولو بدا لنا عمله بسيطاً متواضعاً : ليكن خبازاً أو بناءً ، وليكن زارعاً أو صانعاً ، فلن تجده إلا كريماً حراً ، لأنه قوة من قوى الخير والرخاء ، ولأن الناس لن يودوا إلا جانباً يسيراً من حقه عليهم ؛ فهو صاحب فضل وصاحب خير ، وهذا في عرفنا هو العظيم .

على هذا الأساس تخيرت هذه الحفنة من العظماء الذين أعرض عليك بعض جوانب حياتهم في هذا الكتاب ، ليس فيهم واحد إلا تصدى لعمل كريم يعود خيره على الناس أجمعين ، أفنى فيه نفسه وأنفق أيامه صابراً متجلداً راضياً بما لقي في سبيله من الإعانات والأذى ، لأن إيمانه بالعمل وحرصه على خير الناس صرفاه عن التفكير في أمر نفسه ، وخلق له عالماً داخلياً حافلاً ، هو أجمل عنده وأغنى من عالم الناس الذي عاش فيه .

وقد مضى وفات ذلك الزمان الذي كان الناس يرددون فيه بالإعجاب البالغ بيتي
أبي الطيب :

مصر القديمة إلى ذروته ، فهو يأخذ مكانه في مطلع هذا الكتاب على أنه بانٍ من بناء الحضارات ، وإن كانت الحرب إحدى وسائله في ذلك البناء .

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك في الدنيا دويأ كأنها تداول سمع المرء أنملهُ العشر

حاسبين أن هذا الكلام إنما هو لباب فلسفة الحياة ، وما هو في الواقع إلا كلام حسن الصياغة لم يصدر عن إيمان بالخير أو حب للناس .

نعم ، مضى زمان الفتكات البكر والصيت المدوى الذي لا يغر إلا كل فارغ النفس سقيم الوجدان .

مضى ذلك الزمان وأقبل زمان العمل الكريم والخير المتصل ، ولم تعد الدنيا للمحارب الفاتك وإنما للعامل الكريم المخلص الذي يعمل على توفير الخير على قدر ما يستطيع .

وقد يبدو أنني خالفت هذه القاعدة فيما ذكرت من سير أبطال محاربين ، من أمثال تحتمس الثالث وبطليموس الثالث الملقب بيورجيتيس وأخيل والإسكندر العظيم ، ولكن الحقيقة أنني التزمتها في هذه التراجم ولم أغفلها ، لأنني لم أذكرها لأجد انتصاراتهم وإنما للمعاني التي قصدوا إليها من وراء الحروب .

فتحتمس الثالث رائد من رواد الحرية في التاريخ ، وعلم من أعلام الحضارة الإنسانية حمى بلاده ورد عوادي الأعداء ، وحمل نور الحضارة المصرية إلى آسيا ، ووصل بمجد

مصر القديمة إلى ذروته ، فهو يأخذ مكانه في مطلع هذا الكتاب على أنه بانٍ من بناء الحضارات ، وإن كانت الحرب إحدى وسائله في ذلك البناء .

وكذلك الإسكندر ، لم أذكره للفتوح العظيمة التي قام بها ، وإنما للفكرة العليا التي دفعته إلى خوض غمار الحروب ، فكرة مؤاخاة الشرق والغرب على بساط الحضارة والعمران .

وبطليموس الثالث ذكرته لمجد الفتح الذي قام به وحمل به حضارة مصر وحضارة الإغريق إلى حدود الهند ، وذكرته لأنه بطل مصرى مجهول ، وواحد من الكثيرين الذين ساهموا في بناء وطننا ، وهو أعز شىء في هذا الوجود .

تخبرت هذه الصور جميعاً - مصرية وغير مصرية - مثلاً من الجهاد الكريم ، كى يؤمن من يقرؤها بجلال الخير وجلال الإيثار . ولكى أوجه نفوس قومي إلى الوجهة الوحيدة التي تهىء لهم العيش الكريم العزيز الذي يرتججون ؛ هذه الوجهة هي الإيمان بأن الخير هو غاية الحياة العليا ، فمن آمن بذلك فقد أمن الذل والهوان ، ومن نسيه عاش في ألفاف الخوف والعوز ، ولن ينجو به منهما بعد ذلك مال ولا جاه ولا صيت .

وليس إلى الشك سبيل في أننا - نحن المصريين - كنا طوال تاريخنا من جنود الإنسانية ، ولاشك كذلك في أن الناس عرفوا لنا فضلنا في أحيان وأغفلوا أمره في أحيان ، فعولت على إبراز بعض جوانب هذا الفضل الخافية ، وحرصت على أن أضيف بضع تراجم وصور من تاريخنا تؤكد للناس كريم مساهمتنا في بناء صرح الحضارة الإنسانية .

تلك هي فكرة هذا الكتاب ، وعلى ضوئها أحب أن تقرأه ، لأنها لباب حياة كل واحد ممن سنستعرض قصصهم في هذه الصفحات .

وقد قسمت هذه التراجم أقساماً ثلاثة :

الأول : صور من البطولة في العصر القديم .

والثاني : صور من البطولة الإسلامية .

والثالث : صور من البطولة في العصر الحديث ، بعضها أوروبى وبعضها أمريكى .

وختمت الكتاب بصورة لبطل مصرى كريم هو الأميرالاي محمد عبيد ، كما بدأته ببطل
مصرى قديم هو نحتمس الثالث بطل مجدو .

وذئلتُ الكتاب بثبت للمراجع : جعلت لكل فصل في الكتاب مراجعه على حدة
وربت الفصول ترتيباً زمنياً . ولما كانت هذه الصور قد كتبت في فترات متباعدة وفي ظروف
شتى فقد جاءت مراجع كل صورة بحسب المكان الذى كتبتها فيه ، ولست أشك في أن
معظم ما أورده من الكتب الألمانية موجودة في ترجمات إنجليزية أو فرنسية .

وقد تفضل بمعاونتى في مراجعة تجارب هذه الطبعة صديقى الأستاذ يحيى سيد حسين
والدكتور محمد زينهم فلها خالص الشكر .

والحمد لله رب العالمين .

حسين مؤنس

مايو ١٩٩٢